

رابعاً - النقد في العصر العباسي :

وصلت الحياة الفكرية في العصر العباسي إلى ذروة التطور والإزدهار، ولاسيما في العلوم و الآداب، وقد عرف العصر حركات ثقافية مهمة وتيارات فكرية بفضل التداخل بين الأمم، وكان لنقل التراث اليوناني والفارسي والهندي، وتشجيع الخلفاء والأمراء والولاة، وإقبال العرب على الثقافات المتنوعة، أبعد الأثر في جعل الزمن العباسي عصراً ذهبياً في الحياة الفكرية. بدأ النقد الأدبي في هذا العصر يشهد بعض التطور من حيث البناء والمنهجية ، تبعا لتطور الحياة ، واتساع دائرة انتشار الثقافة ، وتهذب الذوق والطبع ، فصارت الأحكام النقدية تصدر عن " ذوق تدعّمه المعارف وتغذيه الثقافات ، والنهوض بهذا الفن الجميل والسير به قدما نحو التكوين والتكامل " .

وفي هذا العهد اتجه النقد الأدبي إلى ثلاث اتجاهات بارزة هي :

1- اتجاه عربي صرف لم تمازجه ثقافات وافدة أو تؤثر فيه عوامل دخيلة، وقد تمثل هذا الاتجاه عند جماعة اللغويين والنحاة كالخليل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء والنضر بن شميل والكسائي والأخفش وابن الأعرابي والمبرد ومن على شاكلتهم ممن كانت لهم دراية باللغة وأصولها والشعر وروايته، وصور هذا النقد مبنوثة في ثنايا كتب الأدب والنقد الأولي كالأغاني لأبي الفرج والموشح للمرزباني والشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات ابن المعتز وغيرها، كما تمثل هذا الاتجاه عند بعض النقاد الأوائل الذين عالجوا النقد حسب ما انتهى إليه علمهم في مصنفات مستقلة، رتبوا فيها الشعراء الى طبقات كما فعل ابن سلام، أو تناولوا فيها الحديث عن الشعراء وأخبارهم ومنزلتهم كما فعل ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء.

1- اتجاه عربي اعتمد على الطبع والذوق ثم دعمته الثقافات المنوعة التي نهضت به و غذته وكانت له وافداً قوياً، ولكنها لم تقض على أصالته وسمات عروبته، وهو ما نلاحظه عند الآمدي في موازنته، وعند القاضي الجرجاني في وساطته، وذلك في باب نقد الشعر، وعند

رجل كالجاحظ في جمال نقد النثر . وقد اتم نقد هؤلاء باستقصاء البحث وشمول الفكرة وتوضيح العلة والموازنة بين الشعراء .

2- اتجاه تأثر فيه أصحابه بالتيارات الثقافية الأجنبية شكلاً وموضوعاً حيث خضع النقد فيه لسلطان المنطق والفلسفة وغلب فيه العقل على الذوق والفكر على الحس، وقد تمثل هذا الاتجاه عند قدامة ابن جعفر في كتابه -نقد الشعر- الذي كان تأثره فيه بمنطق اليونان واضحاً.

ولم يرتكز النقد في العصر العباسي كثيراً على الذوق الفطري، بل أخذ ينتفع بكل ما أتت به النهضة العلمية في مستهل ذلك العصر ،وبدأ يعتمد على قواعد و أصول ثابتة وواضحة .

وقد ظهر نوع جديد من النقد في هذا العصر وهو النقد البلاغي الذي يعتمد على البلاغة وفنونها ، ونجد أن المعتزلة لهم فضل كبير في نشوء هذا اللون من النقد .

ولعل خير ما أثر عن المعتزلة في مجال النقد البلاغي حتى أوائل القرن الثالث صحيفة بشر بن المعتمر ، والتي أوردها الجاحظ في البيان والتبيين كاملة ، وهي تتضمن نصائح عامة للكتاب تتعلق بالكتابة ، وتحتوي على ما يشترط لهذه الكتابة من توفر الطبع وتخير الوقت والبعد عن التوعر في اللفظ وتجنب الحوشي والتعقيد في الكلام .

ومنذ مجيء عصر التأليف بحلول القرن الثالث الهجري ، خطا النقد العربي خطوات عملاقة نحو التطور ، بظهور عدة مؤلفات منها : "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي ، و "البيان والتبيين" و "الحيوان" للجاحظ ، و "الشعر والشعراء" و "أدب الكاتب" لابن قتيبة ، والذي تناول قضايا نقدية كالإنتحال واللفظ والمعنى والمفاضلة بين الشعراء .

وظهر في القرن الرابع "عيار الشعر" لابن طباطبا ، و"نقد الشعر" لقدامة بن جعفر ، و"الموازنة" للأمدي ، و"الوساطة" للقاضي الجرجاني ، وفي القرن الخامس ظهر "دلائل الاعجاز" لعبد

القاهر الجرجاني، وبفضل هذه المصنفات صار للنقد أسس ومناهج متبعة ، و أصبح للموازنة قواعد ، وظهر النقد البلاغي .

ونعرض هنا بعضا من النماذج النقدية في النقد المنهجي :

- نماذج من الموازنة للآمدي :

قال أبو تمام في معنى الشوق :

يكفيك شوق قد يطيل ظمائه فإذا سقاه سقاه سم الأسود

يعلق الآمدي على معنى البيت بقوله : " شوق قد يطيل ظمائه غلط ، لأن الشوق هو الظمأ نفسه ، إنك تقول : أنا عطشان إلى رؤيتك ، وظمآن ، مشتاق ، بمعنى واحد ، فكيف يكون الشوق هو المطيل للظمأ ؟ وكيف يكون هو الساقى ، والمحبوب هو الذي يظمئ ويسقي ، أو البعد أو الهجر لا الشوق . فكيف يكون الشوق يطيل شوقه ؟ " .
" قال أبو تمام :

لَمَّا اسْتَحَرَّ الْوَدَاعُ الْمَحْضُ وَأَنْصَرَمَتْ أَوْأَخِرُ الصَّبْرِ إِلَّا كَاطْمًا وَجِمًا

رَأَيْتَ أَحْسَنَ مَرِيٍّ وَأَقْبَحَهُ مستجمعين لي التوديع والغما

يقول الآمدي : استحسّن من المحبوبة إصبعها الذي يشبه العنم في الاحمرار ، واستقبح إشارتها له بالوداع ، وإشارة المحبوبة بالوداع لا يستقبحه إلا أجهل الناس بالحب ، وأقلهم معرفة بالغزل ، و أغلظهم طبعاً ، و أبعدهم فهماً ، ألم يسمع قول جرير :

تنسى إذ تودعنا سليمي بفرع بشامة سقى البشام ؟

فدعا للبشام بالسقيا لأنها ودعته به ، فسر بتوديعها " .

"قال أبو تمام :

لا تَسْقِنِي ماءَ المِلامِ فَإِنِّي صَبٌّ قَدِ اسْتَعَذَبْتُ ماءَ بُكائِي

وقد عابه النقاد لقبح الإستعارة في جعله للملام ماء ، ولكن الأمدى يرى عكس ذلك فيقول : وهذا ليس بعيب عندي ، لأنه لما أراد أن يقول : قد استعذبت ماء بكائي ، جعل للملام ماء ليقابل ماء بماء (مشاكلة)كقوله تعالى : ﴿وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ ، فالثانية ليست بسئة ، وإنما هي جزاء عن سيئة،وكذلك : ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ ، والفعل الثاني ليس بسخرية ، ومثل هذا في الشعر والكلام كثير مستعجل .

أما النقد في بلاد المغرب العربي والأندلس ، فقد ظهر في عمومه متأثرا بنقد المشرق ، وتجلى ذلك في بروز عدة مؤلفات على نحو "العقد الفريد" لابن عبد ربه ، و "العمدة " لابن رشيقي ، ثم توالفت المصنفات في الظهور حتى ظهرت "مقدمة ابن خلدون" ، "وبفضل هؤلاء النقاد صار النقد علما له قواعده و أصوله".

وهكذا استعرضنا لأهم الفترات التاريخية التي مربها النقد الأدبي ، والمقصود بتلك الفترات المراحل التي سبقت ابن سلام صاحب كتاب " الطبقات" الذي يعد أول كتاب كتب في النقد ، وهي فترة وجيزة وجد فيها النقد الأدبي هينا يسيرا لا يستند لأي علم ، يعتمد على الذوق والشعور والانطباع والتأثر ، خال من التعليل والتعمق في الحكم ، ونحن إذا جعلنا هذا الكتاب في أول دراسة النقد التاريخي ذلك أن معظم النقاد المحدثين يعدون هذا المؤلف كتابا تاريخيا ، وعلى رأسهم محمد مندور صاحب كتاب النقد المنهجي عند العرب ، يقول مندور : " إذا كان النقد قد أخذ يستخدم علوم اللغة المختلفة لتوضيح أحكامه و تعليلها ، وذلك عندما تكونت تلك العلوم ، فهو بدوره قد اتخذ أساسه الجوهري في أول كتاب ألف في تاريخ الأدب العربي وهو طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت 232هـ) ، وذلك لما هو واضح في منهج تبويبه للأدب من اتخاذ أحكام النقد فيصلا في النهاية " .